أبجديات في آليات التحليل التداولي للنصوص التراثية

أ .حنان فلاح

جامعة مولود معمري – تيزي وزو-

شهدت الدراسات اللّغوية في الآونة الأخيرة تطوّرا ملحوظا خاصة بعدما تمكّنت من اختراق النصوص التراثية باعتبارها فعلا لغويا اجتماعيا بالدرجة الأولى تتجاوز نسق الجملة إلى مستوى النص، وتتحوّل من نظام من الرّموز إلى خطاب تتجلى فيه عناصر المقاربة التداولية التي تدور في أغلبها حول أفعال الكلام وما يتصل بها دوما من مفاهيم القصد التواصلي ومقام التواصل وما يكون من علاقة بين مقاصد المتكلّم من ناحية وإمكانات الاختيار المناسب لمختلف التراكيب الموضوعة في اللغة للتعبير عن الأغراض والمقاصد من ناحية أخرى.

وإذا ما حاولنا استنطاق الرّصيد المعرفي في مختلف النصوص التراثية باعتماد المنهج التداولي فإنّنا نلفي ذخرا ثمينا من الأفكار التداولية التي نظّر لها العديد من الدارسين القدامى في مؤلفاتهم أمثال السكاكي، الجاحظ، وأيضا ابن جني؛ لكن ما تجدر الإشارة إليه أنّ استنطاقنا لها لا يتمّ إلاّ وفق آليات التحليل التداولي التي لا يكاد يستغني عنها أيّ دارس اعتمد المنهج التداولي في تحليله لشتى النصوص التراثية والخطابات المتعدّدة والمتنوعة، **وهو ما يدفعنا للتساؤل عن التداولية كمفهوم وكمصطلح؟ وكذا التساؤل عن أبرز آليات التحليل التداولي التي تمكّننا من سبر أغوار النصوص التراثية؟**

إنّ الإجابة عن تلك الأسئلة تستدعي منا أوّلا تحديد مدوّنة نحاول من خلالها تبسيط أهم آليات التحليل التداولي للنصوص التراثية وسيكون انتقاؤنا لها انطلاقا من النصوص النثرية الرائدة لمؤلفين أولوا عناية فائقة باللغة وباستعمالاتها ويعد كتاب "**المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها**" لابن جني خير تمثيل في هذا المقام.

وكما أوردنا سالفا سنحاول التركيز أكثر في هذه الورقة البحثية على النقاط التالية:

* **مفهوم التداولية.**

* أبرز آليات التحليل التداولي التي يتم اعتمادها لدراسة كتاب "المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها" لابن جني أنموذجا وفق المنهج التداولي.

أوّلا: ماهية التداولية كمصطلح وكمفهوم

1- **التداولية كمصطلح**

يعود مصطلح التداولية (Pragmatic) بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس (Charles Morris)، الذي استخدمه سنة 1983 للدّلالة على فرع من الفروع التي يشتمل عليها علم العلامات والمتمثلة في:

***علم التراكيب:** ويُعنى به دراسة العلاقات الشكلية بين العلامات.

* **علم الدلالة:** ويدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل أو تحيل إليها.

* **التداولية:** وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسّريها. [1]

وعليه إنّ التداولية كمصطلح تعود في بداية أمرها إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس (Charles Morris) الذي أدرجها ضمن أحد الفروع المكوّنة للسيميائيّة، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّها صارت مستقلّة بنفسها، فهي لم تصبح مجالا يُعتدّ به في الدرس اللّغوي المعاصر حتى العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام بتطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي بجامعة أكسفورد وهم أوستين، سيرل، غرايس والذين كان جُلّ اهتمامهم منصبا حول "طريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ رسالة إلى مُستقبل يُفسّرها، وكان هذا من صميم عملهم وهو من التداولية أيضا"[2]

2- التداولية كمفهوم

2-1- المعنى اللغوي

يعود مصطلح التداولية في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (د، و، ل) وله معاني مختلفة لكنّها مع ذلك لا تخرج من معنى التّحوّل والتبدّل، وجاء في لسان العرب لابن منظور:"... تداولنا الأمر أخذناه بالدّول وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر... وداولت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس ..."[3]

وأمّا مصطلح التداولية في أصله الأجنبي (Pragmatique) فإنّه يعود إلى الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) المبنية على الجذر (Pragma) والذي يعني العمل أو الفعل (Action).

2-2- المعنى الاصطلاحي

إنّ التداولية في أبسط تعريفاتها بمثابة اتجاه في الدّراسات اللسانية يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، وسَيتتبع هذا التفاعل دراسة كلّ المعطيات اللّغوية والخطابية المتعلّقة بالتّلفظ، خاصة المضامين والمدلولات التي يُولّدها الاستعمال في السياق وتشمل هذه المعطيات:

* معتقدات المتكلّم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث اللّغوي.

* المعطيات الخارجية ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.

* المعرفة المشتركة بين المتخاطبين وأثر النص الكلامي فيهما.[4]

وتُعرّف أيضا بأنّها: دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام(Language in use)، بمعنى دراسة اللّغة في سياقاتها الواقعية لا في حدودها المعجميّة أو تراكيبها النحوية، وهي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معيّنة، كما لا نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترحها الكتب.[5]

وعليه يمكن القول بأنّ التداولية تهتم بدراسة اللّغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق تخاطبي ما، مع مراعاة كلّ ما يحيط بأطراف العملية التخاطبية بُغية الوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب الذي سطّره المخاطب منذ البداية في ذهنه.

ثانيا: آليات التحليل التداولي في كتاب "المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها" لابن جني

حاولت التداولية الإجابة عن أسئلة كثيرة لم تستطع المناهج الأخرى الإجابة عنها من قبيل: " **من يتكلّم؟ وإلى من يتكلّم؟ بماذا يتكلّم؟ ماذا نصنع حين نتكلّم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلّم؟...**"[6]

إنّ المتأمّل لكتاب المحتسب يجد فيه طائفة من أصول العربية وقواعدها العامة من لغوية ونحوية وعروضية دعته دواعي الاحتجاج وتأييد الرأي إلى إيرادها في مواطن شتى من الكتاب، هذا بالإضافة إلى عرض لبعض المسائل البلاغية.[7]

ومن هنا بالتحديد تتجلى القيمة النصية للمحتسب في قدرة صاحبه على الجمع بين أشتات هذه العلوم في بِنية واحدة ليتّخذها كأداة معرفية تساعده على تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها؛ وسنحاول فيما يلي الإجابة عن الأسئلة السالفة الذكر:

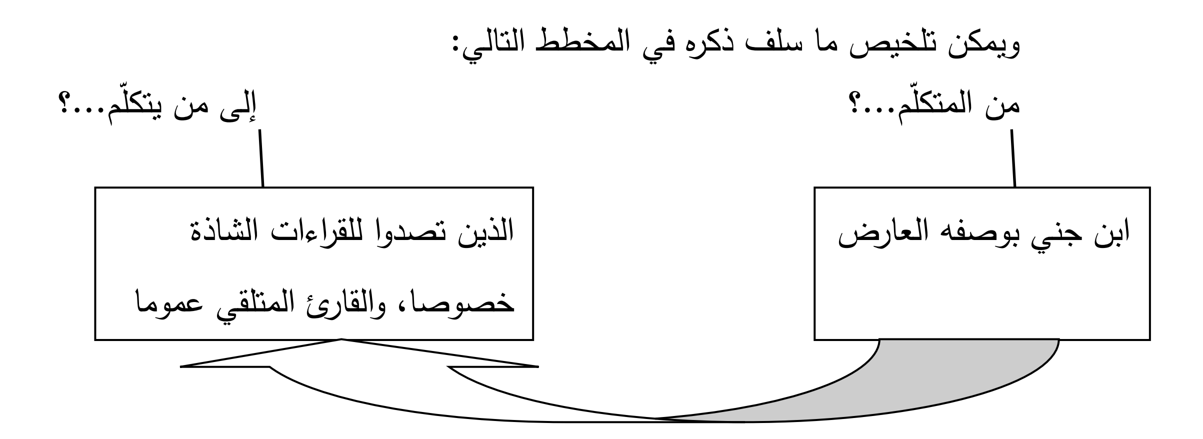
1- من المتكلّم في المحتسب وإلى من يتوجه بكلامه؟

إنّ الناطق الرّسمي المتكلّم أو المتلفظ بالخطاب في المحتسب هو أبو الفتح عثمان بن جني ويتوجه بخطابه إلى الذين تصدوا للقراءات وأخذوا منها موقفا سلبيا، معتمدا في ذلك على جملة من الأدلّة والبراهين، وما نلاحظه في المحتسب وجود كلمات من قبيل: "ألا ترى، اعلم وغيرها، يوحي ظاهرها إلى أنّ هناك حوارا قائما على الأخذ والرد بين أطراف العملية التخاطبية، لكن في الحقيقة الأمر مخالف تماما، وهو ما أطلق عليه طه عبد الرحمان مصطلح "الحوار الشبيهي" والذي يختص "بكون العارض فيه يتظاهر بإشراك غيره في طلب المعرفة وإنشائها وتشقيقها، بينما هو في حقيقة الأمر آخذ بزمام توجيه المعروض عليه في كلّ مرحلة من مراحل الحوار، فهو الذي يحدّد للمعروض عليه مسألة سبق أن تدبّرها، ويُعيّن طريقا لبحثها تدبّرها من قبل وينتهي إلى نتائج معلومة له".[8]

فابن جني بوصفه "عارضا" نجده يتظاهر بإشراك غيره في بناء المعرفة عن طريق اعتماده على "النظرية العرضية للحوارية"[9] التي تقوم على انفراد العارض في بناء المعرفة وجعل الحوار يسير في اتجاه واحد انطلاقا من العارض (ابن جني) وُصولا إلى المعروض عليه (الذين تصدوا للقراءات الشاذة) المتلقي هذا الأخير الذي لا يكون له أيّ أثر في توجيه الخطاب والحوار إلاّ بما يتلاءم مع ما طرحه العارض.

ويستند ابن جني في طريقة عرضه هذه إلى تنبيه مُخاطبه المفترض وتوجيهه من خلال استعانته بالأفعال التالية: اعلم، ألا ترى، أنشدنا، حدّثني... ولأنّ هذه الأفعال تنتسب إلى نظرية الأفعال اللغوية فإنّها ذات قيمة تداولية مهمة تتضمن استراتيجية توجيهية تعمل على جذب انتباه المتلقي قصد إفهامه وجعله يقتنع ويأخذ بفكرته.

ويمكن تلخيص ما سلف ذكره في المخطط التالي:



طريقة العرض البرهانية

2- لماذا يتكلم ابن جني؟ وما السبب الكامن وراء كلامه؟ ماذا يريد؟

إنّ المتأمل لكتاب المحتسب يجد أنّ مؤلّفه لم يقم مباشرة بتبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها بل استعان بمقدّمة كانت بمثابة الافتتاحية الموضوعية لموضوعه حاول من خلالها الدفاع عن الشاذ من القراءات والاحتجاج لها وهو ما نلمسه في قوله:" (...) وضربا تعدّى ذلك، فسمّاه أهل زماننا شاذا؛ أي خارجا عن قراءة القرّاء السبعة المقدّم ذكرها، إلاّ أنّه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرّاءه، محفوف بالرّوايات من أمامه وورائه؛ ولعلّه أو كثير منه مساوٍ في الفصاحة للمجمع عليه(...).[10]

ويقول أيضا في حديثه عن الغاية المنشودة من احتجاجه بالقراءات الشاذة: "(...) وغرضنا منه أن نُري وجه قوّة ما يسمّى الآن شاذا، وأنّه ضارب في صحّة الرواية (...) لئلا يرى مُرى أنّ العدول عنه إنّما هو غضّ منه، أو تهمة له، ومعاذ الله ! وكيف يكون هذا والرواية تتمة إلى رسول الله _صلى الله عليه وسلم_، والله تعالى يقول:﴿ وَمَا أَتَاكُم الرّسُولُ فَخُذُوه﴾ [الحشر، الآية 7].[11]

فما أورده ابن جني في المقدمة كان بمثابة المغناطيس الذي يجذب به المخاطَب، والذي يظهر في هذا المقام بمعنى القصد؛ هذا الأخير الذي لا يتجسّد إلاّ باللّغة إذا جعلت عليه دليلا لأنّ:"الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفا، ودلالة على ما في نفوسهم، وإذا أراد أحدهم من الآخر شيئا عرّفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتّب على تلك الإرادة والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ.[12]

فغاية ابن جني هي إذن محاولة إفهام المخاطَب بضرورة الاحتجاج لتلك القراءات الموسومة بالشذوذ وهو ما أشار إليه في كتابه الخصائص الذي أفرد فيه نصيبا من الكلام عن الشذوذ والاطّراد في باب أسماه "باب القول على الاطّراد والشذوذ"، وقام بإجراء مقارنة بين شذوذ اللّغة وشذوذ القراءة وتحدّث عن تأثير هذا الشذوذ في القراءات؛ وفي محاولة منّا للدمج بين ما أورده في الخصائص وما أورده في المحتسب، وبالوقوف من جديد على فحوى مقدمته نخلص إلى أنّ أغلب ما وُرد في المحتسب هو بمثابة تطبيق لما جاء في الخصائص، وبالتالي لا عجب من توجيه ابن جني للقراءات الشاذة والاحتجاج لها لأنّ ما كان يقصده بالشاذ من القراءات تلك القراءات التي لا تندرج ضمن القراءات السبعة، وليست التي فقدت شرطا من شروط القراءة العامة الصحيحة، وحجّتنا في هذا قوله:"(...) وهو ما أودعه أبو بكر أحمد بن موسى ابن مجاهد رحمه الله كتابه الموسوم بقراءات السبعة؛ (...) فسمّاه أهل زماننا شاذا أي أنّه خارج عن قراءة القرّاء السبعة المقدّم ذكرها(...)".[13] أضف إلى ذلك قوله:"(...) وأنا بإذن الله بادئ بكتاب أذكر فيه أحوال ماشذّ عن السبعة(...)."[14]

وانطلاقا من هذا يمكن القول: إنّ ابن جني كان يرمي من خلال مؤلّفه المحتسب إلى تحقيق جملة من الأهداف أبرزها الاحتجاج للقراءات الشاذة والدفاع عنها، والرّد على من وسمها بالشذوذ بحجّة أنّ بعضا مِمّا رُمي بالشذوذ وُصف بأنه من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

* قراءته صلى الله عليه وسلّم: ﴿ وَمِن عِنْدِهِ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ من قوله تعالى في قراءة العامة: ﴿ وَمِن عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ [سورة البقرة، الآية78].[15]؛ وقراءته أيضا: ﴿ مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ ﴾ من قوله تعالى في قراءة العامة: ﴿ مَا وَدَّعكَ رَبُّكَ ﴾ [سورة الضحى، الآية 8].[16]

3- عمّ يتكلم؟

يتكلم ابن جني في مؤلفه المحتسب عن القراءات التي سمّاها أهل زمانه شاذة مشيرا إلى أنّ القراءات ضربين:" ضرب اجتمع عليه أكثر قرّاء الأمصار، وهو ما أودعه أبو بكر أحمد بن عيسى بن مجاهد رحمه الله كتابه الموسوم بالقراءات السّبعة؛ وهو بشهرته غانٍ عن تحديده، وضرب تعدّى ذلك فسمّاه أهل زماننا شاذا؛ أي خارجا عن قراءة القرّاء السبعة(...) إلاّ أنّه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرّائه(...)."[17]

وعليه فالمقصود بالقراءات الشاذة عند ابن جني هي ما خرج عن القراءات السبعة، ومن العلوم التي استعان بها في توجيهه لها: النحو، العروض، البلاغة؛ أمّا الشواهد فهي كثيرة، لكن يشيع فيها التكرار لتكرر مقتضيات الاستشهاد بها، وأغلبها من الشعر وفيها قليل من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلام البلغاء والأمثال السائرة...

4- **كيف يتكلّم؟**

بحث ابن جني عن الكيفية التي تُمكنّه من تحقيق أغراضه ومقاصده ، فوجد أنّه من الأحسن أن ينحو منحى أستاذه أبو علي الفارسي، فيكون "منهجه كمنهج الحجة لا يكاد يخالفه إلاّ بمقدار ما تقتضيه طبيعة الاحتجاج لقراءة الجماعة، والقراءة الشاذة"[18]، ومن ملامح المنهج الذي سار عليه ابن جني أنّه كان يورد القراءات مُرتبة حسب موقعها في كلّ سورة، ويبدأ حديثه بإثبات أسماء القُرّاء ثمّ يذكر القُراء، ونادرا ما كان يُغفل اسم القارئ لعدم معرفته له.

5- طرفا الخطاب في المحتسب

إنّ ما أشار إليه ابن جني في مؤلفه لا يقلّ أهمية عمّا أثاره وأدركه اللغويون والتداوليون الغربيون، وهو ما جعل المحتسب يزخر بمؤشّرات تداولية مهمة منها: عناية صاحبه بعناصر العملية التخاطبية المرسل، المرسل إليه، الرسالة والسياق؛ **وهو ما يدفعنا للتساؤل عن مدى عناية ابن جنى بالعناصر التخاطبية؟**

5-1- المخاطِب

يُعدّ الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنّه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصده وبغرض تحقيق هدف ما، وعن طريقه تنتقل اللغة من الوجود بالقوة في فكر صاحبها إلى الوجود بالفعل عندما يتلفظ المتكلّم بها، ليس هذا فحسب بل يكون وجودها ذو فعل مناسب للسياق، فبدون المرسل لا يكون للّغة فاعلية[19] لأنّ هو من يوظّفها في مستوياتها المختلفة من خلال خطابه، ومن مظاهر عناية ابن جني بالمتكلّم المخاطب عدم إغفاله لأي قارئ من القرّاء في توجيهه للقراءات الشاذة، اللهم إذا كانت معرفته بهم معدومة.

5-2- المخاطَب

يُشكّل المخاطَب الطرف الثاني في عملية التخاطب الذي يُوجّه إليه المخاطِب خطابه عمدا، وقد أشار اللّغويون قديما إلى مدى تأثير المخاطَب على المخاطِب عند إنتاج خطابه،

حيث أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي كالمستوى النحوي مثلا، ولم يقفوا عند هذا الحدّ، بل أبرزوا دوره أيضا في سياق الخطاب وأثر ذلك على الخطاب تداوليا لأنّ "إنشاء الخطاب وتداوله مرهون إلى حدّ كبير بمعرفة حال أو بافتراض ذلك الحال، والافتراض المسبق رُكن ركين في النظام البلاغي العربي إذ أنّ العناية في المقام الأوّل موّجهة إلى المرسل إليه."[20]

وهو ما يعني أنّ المخاطَب يكون دائما حاضرا في ذهن المخاطِب سواء كان حضورا عينيا أم ذهنيا كما هو الحال في المحتسب، وحينها يقوم المخاطِب باختيار الاستراتيجية المناسبة لقصده، والتي تراعي حال مخاطَبه وهو ما يضفي على خطابه حركية وحيوية.

ومن مظاهر عناية ابن جني بالمخاطب في المحتسب استعانته في توجيهه لعدد من القراءات الشاذة بما أورده في كتابه الخصائص تحت باب "شجاعة العربية" وغيره، وإشارته إلى ضرورة مراعاة عناصر الخطاب في مواطن الحذف، التقديم والتأخير، الالتفات، المبالغة....

هذا بالإضافة إلى إثارته للعديد من الأسئلة ثمّ الشروع في الإجابة عنها مباشرة، كقوله مثلا في توجيهه لقراءة سهل بن شعيب النهمّي:﴿ بَينَ أَيْدِيهِم وَ بِإِيمَانِهِم﴾ [سورة الحديد، الآية 12] بكسر الهمزة فإن قلت فإنّ قوله:﴿ بَينَ أَيْدِيهِم ﴾ ظرف، وقوله: ﴿بِإِيمَانِهِم﴾ ليس ظرفا، ألا ترى أنّه ليس معناه يسعى في أيمانهم؟ فكيف يجوز أن يعطف على الظرف ما ليس ظرفا، وقد علمت أنّ العطف بالواو نظير التثنية، والتثنية توجب تماثل الشيء؟[21]

ما نلحظه هنا أنّ ابن جني من خلال إثارته لهذه الأسئلة وغيرها في بعض التوجيهات يدفع المتكلم تلقائيا إلى افتراض مسبق لسؤال السامع، فيضع له إجابة أثناء كلامه، مِمّا يضمن استمرارية الخطاب وتحقيق الفائدة لدى السامع، وهو ما يشكّل بُعدا تداوليا هاما تتجلى غايته إمّا في تنبيه السامع ولفته إلى ما يقول أو لردعه عن السؤال حتّى يضمن استمرارية الإصغاء إليه.

5-3- الخطاب

يُعتبر الخطاب ثمرة اجتماع العناصر السالفة الذكر دون أن ننسى الظروف المحيطة به، والفضاء الرّحب الذي تبرز فيه مختلف الأدوات اللغوية والآليات الخطابية المنتقاة من قبل المخاطِب لإخراج خطابه في الصورة التي يريدها.

وما يمكن قوله إن عناية ابن جنى بأطراف العملية العملية التخاطبية وبجلّ التراكيب العدولية لمختلف القراءات تجعل من المحتسب مجالا خصبا لإقامة لسانيات تداولية عربية تبحث في المعنى الحقيقي الكامن وراء الظواهر العدولية لمختلف القراءات الشاذة الخارجة عن السبعة، متخذة من اللغة أرضية للدراسة والتحليل أثناء الاستعمال.

ففي مقدّمة المؤلف مثلا نلاحظ أنّ أوّل ما ابتدأ به ابن جنّي خطابه وانتهى به هو إخلاص النية لله عزّ وجل وحمده وسؤاله أن يجعل الجنّة مثواه، مشيرا فيما بعد إلى دلالة المحتسب وسبب تسميته له بهذا الاسم، فيقول في بدايتها: "اللهم إنّا نحمدك أقصى الحامدين(...) ونسألك أن تصلي على نبيّك المرتضى محمّد وآله الطاهرين(...) وأن تجعل أعمالنا لك، واتصالاتنا بك، ومطالبنا مقصورة على مرضاتك(...) وجعلتُ عنوان تصديقه الباعث على سلوك طريقه، ما أودعته من إعجاز كلمه(...).[22] وفي نهايتها: 'اللّهم أخلص أعمالنا لوجهك، وأوسعنا من عافيتك وعفوك، إنّك سميع الدعاء فعّال لما تشاء".[23]

مِن هنا نلمس عناية ابن جني بكلّ ما يقوله من عبارات، إذ لم يتطرق مباشرة لصلب الموضوع بل مهّد له، وهمّه في ذلك كلّه أن يُقيم جسر تواصل بينه وبين المخاطَب حتى يبعث الطمأنينة في قلبه ويدفعه للتجاوب مع ما يطرحه، مستعينا في ذلك بعدد من الأفعال التي تخدمه كأفعال الشكر والحمد والتمني والشوق لجنّات النعيم، نذكر منها على سبيل المثال: نحمدك، نسألك أن تصلي، اقبلنا إلى كنز جنّتك، اللهم أخلص أعمالنا لوجهك.

فمن خلال هذه الأفعال تمكّن ابن جني من التعبير عن مقصده وهو ما يندرج ضمن خانة التعبيريات(Expressive) عند جون سورل John Rogers Searle وغرضها الإنجازي هو التّعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلّم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقة للعالم، ولا العالم مطابق للكلمات، ويندرج ضمنها: الشكر، التهنئة، الاعتذار، المواساة.[24]

ليُوجّه كلامه بعدها مباشرة للمخاطَب من أجل إقناعه ودفعه إلى القيام بفعل ما بخصوص القراءات الشاذة، هذه الأخيرة التي سعى إلى الدفاع عنها والتماس الحجة لها بعد أن قام بتقديم عرض موجز حولها لخص فيها ماهيتها وسبب دفاعه عنها مُقرّا بأنّها ضاربة في الصحة والرواية وأنّها ممّا صح لأهل العلم تواترها إلى جانب القراءات السبعة مستعينا بجملة من وسائل الإثارة والتأثير؛ حيث نوّع بين الجمل الاسمية والفعلية وأزمنتها وأساليبها

فمرّة تقريرية ومرة إنشائية دون أن ننسى استعانته ببعض الروابط المنطقية المحققة للاتساق والانسجام؛ فتمكّن من تجسيد قوى تلك الأفعال التي يجوز لنا أن ندرجها ضمن خانة التقريريات والتوجيهيات في الآن نفسه، وحجّتنا في ذلك ما أشار إليه محمود نحلة إلى أنّ الغرض الإنجازي من التوجيهيات(Direstives) هو محاولة المتكلّم توجيه المخاطَب إلى فعل شيء مُعيّن، واتّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتجلى في الرّغبة الصادقة، ويندرج ضمن هذا الصنف الاستفهام، الأمر، الرجاء، الاستعطاف والتشجيع.[25]

6- المقاصد

تعد المقاصد جوهر العملية التواصلية كونها تسعى إلى بلورة المعنى كما هو مبثوث في ذهن المرسل؛ وهي"ذات تكوين بيولوجي ولها أطر معيّنة في ذهن المرسل يسعى من خلالها إلى تحقيق الفهم والإفهام عن طريق الاستعانة باللغة في مختلف مستوياتها المعروفة، ذلك بمعرفته بالعلاقة بين الدوال والمدلولات، وكذلك بمعرفته بقواعد تركيبها وسياقات استعمالاتها وعلى الإجمال معرفته بالمواضعات التي ينتظم إنتاج الخطاب بها" [26]

وإذا ما جئنا للكشف عن المقاصد الكامنة وراء تأليف ابن جنى للمحتسب لوجدنا أنّها تتمثل في سعيه إلى الاحتجاج للشاذ من القراءات وإثبات أنّ ما قيل عن الشاذ ضارب في الصحة والرواية عن طريق اللغة التي اتخذها كأداة لطرح أفكاره من أجل إقناع وإفهام المتلقي متبّعا في ذلك منهجية منظمة؛ "فتراه يعرض القراءة ويذكر من قرأ بها ثم يرجع في أمرها إلى اللغة يلتمس لها شاهدا أو لهجة فيردها إليه ويؤنسها بها، أو تأويلا أو توجيها فيعرضه في قصد وإجمال أو تفصيل وافتنان حسب ما يقتضيه المقام، ويتطلب الكشف عن وجه الرأي في القراءة"[27]

وهو ما أضفى على خطابه لمسة حجاجية اتخذ فيها سبيلا إلى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها وإقناع المتلقي، هذا الأخير الذي يظهر بصورة جلية في خطابه من خلال استعماله لضمير المخاطب المفرد"أنت" المضمر في أفعلل مختلفة وهو ما يحيل إلى وجود علاقة تواصلية بين أطراف العملية التخاطبية.

ومما لاحظناه في استعمال ابن جني للضمير "أنت" أنّه لا يستعمله في السياق للإحالة على المرجع فقط بل يتجاوزه ليصيح مؤشّرا على غرض تداولي وهو ما يوسم ب"أنت التعاونية"

وهي التي يستعملها المُخاطِب المرسل في مخاطبته للمرسل إليه، فإذا دار حوار بين اثنين أو جرى بينهما أيّ نوع من أنواع الخطابات فإنّ كلاًّ من الطرفين يستعمل "أنت" عندما يكون مرسلا.[28]

وهو ما يظهر عند ابن جني في قوله:"اعلم أنّ جميع ما شذّ عن القراءة السبعة وشهرتهم (...)"؛ "ألا ترى ما أنشد الحسن عن قوله:(...)"؛ ويمكن إرجاع سبب توظيف ابن جني لهذا الضمير المضمر في الفعل في وصفها –القراءات– "أداة غير محدّدة المرجع، وهي بذلك خِصّيصة من شأنها أن تقدّم للخطاب بعدا تداوليا أوسع، حيث يحبّذ استعمالها لمخاطبة كل من تنطبق عليه سمات المرسل إليه العام أي المفترض ولا تتجه إلى واحد بعينه."[29]

كانت هذه أبرز آليات التحليل التداولي للنصوص التراثية التي لا تكاد تخلو منها مختلف الدراسات التي تقوم على المقاربة التداولية، هذا بالإضافة إلى الأفعال الكلامية التي لم نفصّل فيها الكثير من الكلام واكتفينا فقط بذكر ما يتلاءم مع المقام، والتي استنطقنا من خلالها كتاب "المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها" لابن جني الذي سعى من خلاله إلى إبراز مختلف الاستعمالات اللغوية المرتبطة بالظروف والأحوال المحيطة بالخطاب القرآني، محاولين إعادة قراءة التراث وبيان ما انبنى عليه من أسس أصيلة ونظام متماسك تسترسل فيه معاني النحو بين الجهاز النظري والإنجاز الكلامي.

الهوامش:

---

[1]: ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص9.

[2]: ينظر، المرجع نفسه، ص.ن.

[3]: ابن منظور، لسان العرب، المجلد 11، ضبط خالد رشيد القاضي، ط1، دار الأبحاث، الجزائر، 2008، ص252.

[4]: ينظر، عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية_ بنية الجملة العربية، التراكيب النحوية والتداولية_ علم النحو وعلم المعاني، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، 2004، ص121.

[5]: ينظر، بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللّغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ط1، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص19.

[6]: ينظر، فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علّوش، دط، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986، ص8.

[7] :ينظر، أبو الفتح عثمان بن جنّي، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ج1، تح: علي النجدي ناصف وآخرون، دط، لجنة إحياء كتب السنّة، القاهرة، 1994،ص19/18.

[8] : طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، 2000، ص41.

[9] : ينظر، المرجع نفسه، ص38.

[10]: ينظر، أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب،ج1، المصدر السابق، ص32.

[11]: المصدر نفسه، ص33.

[12]: ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب_مقاربة تداولية_، دط، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، لبنان، 2003،ص 219.

[13]: أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب، ج1، المصدر السابق، ص32.

[14]: المصدر نفسه، ص34.

[15]: أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب، ج1، المصدر السابق، ص 358.

[16] : المصدر نفسه، ص 364.

[17] : المصدر نفسه، ص 32.

[18] : المصدر نفسه، ص 12.

[19] : ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق، ص46.

[20] : ينظر: المرجع نفسه، ص48/47.

[21] : أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب، ج1، المصدر السابق، ص311.

[22] : المصدر نفسه، ص31.

[23] : المصدر نفسه، ص36.

[24] : ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، المرجع السابق، ص49.

[25] : ينظر، المرجع نفسه، ص79.

[26]: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق ، ص183.

[27]: أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب، ج1، المصدر السابق، ص12.

[28]: ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق، ص288.

[29]: ينظر، الشهري، ص89.